منشورات اتحاد
المؤرخين العرب
القاهرة

التاريخ الحربى
عبر عصور التاريخ

حصاد ٢٠

مؤتمر عقده اتحاد المؤرخين العرب بمقره بالقاهرة

١٤٣٤ هـ — ٢٠١٢ م

التاريخ الحربى عبر عصور التاريخ
١٤٣٤ هـ — ٢٠١٢ م

النار الإغريقية بين الروم والمسلمين

أ.د. حامد زيان غانم (*)

تناول كثيرٌ من الباحثين العرب والأجانب الحديث عن النار الإغريقية[١]، من حيث خواصها وتركيبها وتاريخ صناعتها، ولكن الذي لم يتم إلقاء الضوء عليه هو كيفية انتقالها إلى المسلمين، وهل عرفها قبل الروم شعوب أخرى، ثم معرفة القدر الذي صار إليه تطور هذه النار عند المسلمين، لدرجة أنهم أصبحوا سادة البحار، وخاصة البحر المتوسط الذي كان يعرف قبل نزول المسلين إليه " ببحر الروم ". وهذا هو موضوع هذه الدراسة.

النار الإغريقية من الأسلحة البحرية الفتاكة التي شاع استعمالها في العصور الوسطى، وخاصة عند الدولة البيزنطية في أول الأمر، واحتفظ بسريتها أباطرة هذه الدولة، ولم يسمحوا لأحد أن يعرف سر صناعتها، حتى تكون حكرًا لهم[٢].

أطلق الروم[٣] على هذه النار عدة أسماء فكان من بينها : " النار البحرية "،

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب جامعة القاهرة.

(1) انظر على سبيل المثال : سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م؛ وسام فرج: النار الأغريقية طبيعة تركيبها وأثرها في نشاط المسلمين البحري، مقال في كتاب "بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي"، القاهرة ٢٠٠٤؛ طارق منصور : النار الأغريقية، قراءة جديدة في ضوء المصادر البيزنطية والإسلامية، مقال منشور في حولية التاريخ الإسلامي والوسيط عدد (٤) القاهرة ٢٠٠٥م؛ طارق منصور ومحاسن الوقاد : النفط استخدامه وتطوره عند المسلمين، القاهرة ٢٠٠٦م.

Haldon, J. and Byrne, M, " A possible Solution to the Problem of Greek Fire ", Byzantinische, Leipzig, 1977.

(2) قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. محمود سعيد عمران، بيروت ١٩٧٠م، ص٦٨.

(3) الروم هو الاسم الذي عُرف به أهل الدولة البيزنطية، فهذه الدولة هي القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، ولم نجد في أي مصدر يوناني كلمة بيزنطي، وهذا المصطلح الأخير" بيزنطي " أطلق عليهم في العصور الحديثة عندما أخذ المؤرخون المحدثون يتناولون تاريخ هذه الدولة، حتى يتم التفريق بينهم وبين أهل القسم الغربي من الإمبراطورية، وكان للروم خصائص تميزهم عن غيرهم، سواء في اللغة حيث كانوا يتحدثون اليونانية، وفي الدين حيث دانوا بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي. وقد نعتوا في القرآن الكريم بالروم، فقد جاء في التنزيل العزيز ﴿ الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[سورة الروم ١-٣].

" النار السائلة "، " النار الرومانية "[٤].

أما الذي أطلق عليها اسم النار الإغريقية Greek Fire فكان الفرنج اللاتين؛ عندما حضروا إلى الشرق في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ومطلع القرن الثاني عشر (أواخر الخامس الهجري ومطلع القرن السادس)، ولم يكن لديهم أدنى معرفة بهذا السلاح البحري الفتاك، فقد فوجئوا به عندما بدأت أساطيلهم تفد من غرب أوربا إلى الشرق، خاصة أساطيل مدينة بيزا التجارية، وأخذت سفنهم تحتك بسفن الأسطول البيزنطي، لكنها لم تستطع مقاومة سفن الأسطول البيزنطي المسلح بتلك النار، فتروى المؤرخة اليونانية آنا كومنينا Anna Comnena ابنة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين Alexias I Comnenus (٤٧٣-٥١٢هـ/ ١٠٨١-١١١٨م) ما حدث عندما اشتبكت سفن الأسطول الذي أعده والدها الإمبراطور الكسيوس كومنين في القسطنطينية، وما انضم إليه من سفن الأقاليم البيزنطية القريبة، حيث كان معلقا في مقدمة كل سفينة رأس سبع، أو ما يشبهه من الحيوانات المتوحشة، مصنوع من البرونز، والرؤوس فاغرة أفواهها، وتتصل أنابيب بهذه الأفواه، وتنطلق منها النار السائلة " Lequid Fire "، فلم تستطع سفن بيزا الصمود أمام تلك النار. وتؤكد آنا كومنينا أن الفرنجة اللاتين (الصليبيون) لم يكن لديهم أدنى معرفة بهذا السلاح البحري، لذلك فوجئوا به، ولم يستطيعوا الصمود أمامه، فهربت سفن بيزا طلبًا للنجاة[٥].

من هنا أطلق الفرنج على ذلك السلاح الفتاك الذي تميزت به دولة الروم الإغريق اسم " النار الإغريقية Greek Fire "، لأنه سلاح انفرد به الإغريق، أهالي الإمبرطورية البيزنطية.

وفي تتبعنا لتاريخ استخدام النار في الحروب، وُجد أن ذلك لم يكن وليد العصور الوسطى فقط، فقد ذكر المؤرخ ثيوكيديدس Thecydides ما حدث عام ٤٢٤ ق.م من استخدام الرومان لهذه النار، حيث وجهوا إلى مدينة ديليوم سفينة كانت تخرج منها النيران؛ بواسطة منفاخ متصل بجزع شجرة مجوف. كما ورد في بعض المصادر وصف معركة بحرية حدثت في القرن الثالث قبل الميلاد؛ استخدم فيها براميل خشبية مملوءة بالقار والفحم، كانت توقد وتقذف على سفن الأعداء. كذلك أشارت المصادر إلى استخدام تركيبات مختلفة من النار في القرن الرابع الميلادي، حيث ادخل إليها النفط[٦].

([4]) قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٨ ؛
Theophanes Confessor : The Chronicle, oxford 1997, p. 546 ;
انظر أيضًا: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦١م، ص١٨٢.
(1) Anna Comnena : The Alexiad, London 1928, p. 292–293 ;
وانظر أيضًا : الترجمة العربية التي قام بها د. حسن حبشي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٤٤٥-٤٤٧.

([6]) إرنل براد فورد : البحر المتوسط، ترجمة خليفة محمد التليسي، تونس ٢٠٠٩م، ص٣٥٧-٣٥٨؛ ديليوم : لم نجد تعريف لهذه الجزيرة وربما يكون المقصود بها جزيرة ديليوس إحدى الجزر

ومعنى ذلك أن استخدام النار في الحروب ووضعها على السفن لم يكن أمرًا جديدًا، ولكن الجديد بالنسبة للدولة البيزنطية: أنهم طوروا من هذه النار وأضافوا إليها تركيبات جديدة، جعلتها أكثر فتكًا.

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين عَرفوا استخدام الحراقات، وهي السفن التي تقذف النار[٧]، منذ القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي، فقد أشار الطبري إلى أن الخليفة العباسي محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) " أمر بعمل خمس حَراقات في دجلة على خِلقة الأسد والفيل والعُقاب والحيَّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيمًا "، ويبدو أن هذا العمل كان جديدًا في نوعه في الدولة الإسلامية، مما دفع الشاعر أبو نواس إلى مَدح الأمين وهو على ظهر تلك السفن[٨]، مع ملاحظة أن هذه الحراقات كانت تعمل بالنفط.

ثم شاع بعد ذلك استخدام هذه الحراقات في أنهار الدولة العباسية، فيشير ابن خلكان إلى

الواقعة في بحر إيجه، فقد شن الرومان عدة هجمات على هذه الجزر، انظر :
The oxford Dictionary of Byzantium, New York, val I, p. 601.

- المؤرخ ثيوكيديدس، هو أحد قادة أثينا العسكريين (٤٧٠-٣٩٦ ق.م)، اشترك في الحرب البليبونيزية بين أثينا وأسبرطة، ثم ترك الخدمة في الجيش ليعكف على كتابة التاريخ. انظر: سيد الناصري : الإغريق، القاهرة ١٩٩٧م، ص٣٤٣-٣٤٨؛ حامد زيان: منهج البحث التاريخي، القاهرة د.ت، ص١٥٣.

(٧) الحراقة / الحراقات : نوع من السفن الحربية، استخدمت لحمل الأسلحة النارية، وهي سفن خفيفة الحركة، ووصفها ابن مماتي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أنها كانت تعمل بمئة مجداف.
انظر : ابن مماتي : قوانين الدواوين، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٩١م، ص٣٤٠؛ انظر أيضًا : درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م، ص٣٢-٣٧.

(٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة د.ت، ج٨، ص٥٠٩، ديوان أبو نواس.

- أبو نواس هو أبو علي الحسن بن هانئ، من أئمة شعراء العصر العباسي، اشتهر بوصفه للخمر والنساء، اتصل بالخليفة محمد الأمين وكان من أخص جلسائه، توفى عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م. انظر: العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي ٢٠٠٦م، ج١٤، ج٢، ص٢٩-٣١.
- من الملفت للنظر أن وصف المؤرخة آنا كومنينا للحراقات قاذفات النار الإغريقية، يقترب من وصف الحراقات التي استخدمها الخليفة الأمين في نهر دجلة، فالأولى اتخذت أشكال رؤوس الحيوانات المفترسة، والثانية على شكل الأسد والفيل، وهو ما يجعلنا نلاحظ ثمة تأثيرا متبادلا بين الجانبين، ولعل العباسيين هم الذين أخذوا ذلك عن الروم.

أن القائد والوزير طاهر بن الحسين[٩]، كانت له حراقة يركبها في نهر دجلة للنزهة والتنقل[١٠]، كذلك يذكر ابن الأثير في الأحداث التي واكبت مقتل الخليفة محمد الأمين بن هارون الرشيد (شهر المحرم عام ١٩٨هـ/ سبتمبر عام ٨١٣م) أن " الأمين حاول الهرب من بغداد في حراقة هرثمة خوفًا من طاهر بن الحسين"[١١]، وبعد مقتل الأمين حُمل ولديه موسى وعبدالله في حراقة إلى مدينة هُمينيا ثم أرسلا إلى عمهما المأمون[١٢].

وهكذا انتشرت الحراقات التي كانت تعمل بالنفط في تلك الفترة في أنهار الدولة العباسية، وكثر استخدامها في التنقل والنزهة، فيشير الشابشتي إلى أن السيدة زُبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد " اجتازت يومًا في دجلة بحراقتها "[١٣].

ومن الملاحظ أن هذه الحراقات، التي استخدمت للنزهة والتنقل في تلك الفترة، كان استخدامها قاصرًا على الخلفاء وزوجاتهم وأمراء الدولة العباسية وقوادها، وذلك لما كانت تتكلفه تلك الحراقات من نفقات باهظة، فقد أشار أبو هلال الصابي إلى ما كان ينفقه الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات من أموال، ويتضح منها أنها كانت مبالغ مالية كبيرة تنفق شهريًا على هذه الحراقات، خاصة المبالغ المخصصة لشراء النفط والمشاقة

---

(٩) هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيق ماهان، فارسي الأصل، كان من أكبر أعوان المأمون العباسي، واستعان به الأخير في محاربة أخيه الأمين وقتله، ثم علت منزلته في الدولة العباسية زمن المأمون، توفى عام ٢٠٧هـ/٨٢٢م. انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر دار صادر، بيروت د.ت، ج٢، ص٥١٧-٥٢٣، وعن حياة طاهر بن الحسين، انظر : ابن طيفور : تاريخ بغداد، بيروت ٢٠٠٩م، ص٨١-١٠٩.

(١٠) وفيات الأعيان، ج٢، ص٥١٩.

(١١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٤٨؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٨٥.

(١٢) السيد عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية، بيروت ١٩٦٩م، ص١١٥.

- هُمينيا : قرية بين بغداد وواسط. انظر الصفدي : الوافي بالوفيات، بيروت ٢٠٠٠م، ج٢٢، ص٩١.

(١٣) الديارات إلى أماكن الزيارات، نشر كوركيس عواد، بغداد ١٩٦٦م، ص٤٥.

للنفاطات[١٤].

ويستفاد من ذلك العرض أن استخدام النار المحمولة على الحراقات، سواء في الحروب أو النزهة والتنقل، عُرف منذ القدَم، عرفه الرومان كما عرفه بعد ذلك المسلمون، في حين لم يعرفه الفرنج اللاتين إلا فيما بعد.

أما الجديد الذي حدث بالنسبة لاستخدام النار، فيرجع إلى العصور الوسطى، حيث تم اكتشاف تركيبة جديدة أشد فتكا وأكثر حرقًا.

أما هذه التركيبة الجديدة فهي من اختراع مهندس يسمى كالينكوس Calinicus أقام في مدينة هليوبوليس (بعلبك) ببلاد الشام في أواخر القرن السابع / أوائل الثامن الميلادي، ويذكر الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩م/٣٠٠-٣٤٨هـ)[١٥] أن كالينكوس هرب من هليوبوليس ولجأ إلى القسطنطينية زمن الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م)[١٦]. والمعروف أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) كان قد شدد إغاراته البحرية على شواطئ الإمبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى، بعد أن أصبحت البحرية الإسلامية تتمتع بقوة كبيرة، وبمراكز بحرية هامة على حساب الإمبراطورية البيزنطية في كل من قبرس ورودس وبعض جزر بحر إيجه، مثل جزر خيوس، كما هيمنت على موانى أزمير وليكيا وقيليقية، ولم يقف الأمر عند ذلك بل تقدم الأسطول الأموي حتى وصل إلى القرب من

---

(14) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، نشر خليل المنصور، بيروت ١٩٩٨م، ص٢٠.

- علي بن محمد بن موسى بن الفرات، ولد عام ٢٤١هـ/٨٥٥م، وتوفى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م، تولى وزارة المعتز بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م)، ثلاث مرات، كما تولى وزارة الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م). انظر : الصابي : تحفة الأمراء، ص١١؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج٧، ص٧١٢-٧١٣؛ العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نشر مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٢م، ج١١، ص١١٣-١١٥.
- المشاقة : جاء في المعجم الوسيط المشقة والمشاقة قطعة من القطن، استخدمت في الحراقات بأن تبلل بالنفط لاستخدامها في النفاطات. انظر : المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٠٧؛ الصابي : تحفة الأمراء، ص٢٠ هامش ١.
- النفاطات : جمع نفاطه، وهي أداة من النحاس كان يرمي بها النفط. انظر : الصابي: تحفة الأمراء، ص٢٠ هامش ٢.

(15) توج الإمبراطور قنسطنطين السابع عام ٩١٢م عقب وفاة والده ليو السادس، لكنه لم يمارس الحكم إلا عام ٩٤٥م. انظر :
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, Copyright 1957, p. 132-247.

(16) إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. محمود سعيد عمران، ص١٨٢.

- حمل الإمبراطور قسطنطين الرابع لقب " بوجوناتوس Pogonatus " أي الملتحي. انظر : سيد الناصري : الروم، القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٣١.

القسطنطينية[١٧].

وإزاء تهديد المسلمين البحري للدولة البيزنطية، أخذ مهندسوا وعلماء القسطنطينية في التفكير في صناعة سلاح بحري يدرءون به هذا الخطر، وحتى لا تقع القسطنطينية في يد المسلمين، ومن هنا كان اختراع " النار السائلة " أو " النار البحرية " أو " النار الرومانية " والتي شاع إطلاق اسم " النار الإغريقية " عليها بعد ذلك.

وكما سبق القول فإن المهندس كالينيكوس السوري الأصل الذي كان مُقيمًا في القسطنطينية آنذاك؛ قام بتطوير النار التي استخدمت في الحروب قديمًا ليجعلها أشد فتكًا، فجعلها مزيجًا من النفط والزيت والكبريت، ويصب هذا المزيج في أنابيب من النحاس ذات فوهة توقد منها تلك الأنابيب، وتوضع هذه الأنابيب في اسطوانة مستديرة داخل المدفع، الذي حملته الحراقات، ثم تقذف على سفن الأعداء، وبمجرد ارتطامها بالهدف تشتعل النار فيها حتى لو كان ذلك في الماء[١٨].

وبعد أن تأكد الروم من فعالية هذا التركيب الجديد، أمر الإمبراطور قسطنطين الرابع بقذفه على سفن الأسطول الأموي الذي أخذ في مهاجمة القسطنطينية، ذلك الهجوم الذي استمر خمس سنوات (٥٤-٥٩هـ/٦٧٤-٦٧٩م)[١٩]، إلى أن اشتد الروم في قذف المسلمين بالنارالإغريقية، فأصاب تلك السفن الدمار واشتعلت بها الحرائق، مما أدى إلى فشل الأسطول الأموي في تحقيق هدفه في الاستيلاء على القسطنطينية، وعادت بقية السفن دون أن تحرز نجاحًا، وفي أثناء عودتها صادفها عاصفة بحرية حطمت معظمها، وعجل ذلك بعقد اتفاقية سلام " هدنة " بين معاوية بن أبي سفيان وقنسطنطين الرابع لمدة ثلاثين عامًا[٢٠].

ويرى بعض الباحثين أن هذه التركيبة الجديدة من النار اختراع مصري، ويعللون ذلك بأن المهندس كالينكوس كان مقيمًا في مدينة هليوبوليس المصرية (عين شمس الحالية)،

---

(17) إبراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣م، ص١٦٥.

(18) وسام فرج : النار الإغريقية طبيعة تركيبها وأثرها في نشاط المسلمين البحري، مقال في كتاب بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠٠٤م، ص١٤٧.

(19) لم يشر المؤرخون المسلمون إلى تلك الغزوات بالتفصيل باستثناء الطبري الذي تناولها باختصار، الأمم والملوك، ج٥، ص٢٨٨-٣٠٥؛ في حين تناولها المؤرخ اليوناني البطريرك هرقل بالتفصيل، انظر : Nikephors : short history, washington, 1990, p. 87.
وانظر الترجمة العربية التي قام بها د. هاني البشير : البطريرك نقفور : التاريخ المختصر، القاهرة ٢٠٠٧، ص٧٧-٧٨.

(20) الكندي : الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، ص٣٩؛ انظر أيضًا : السيد الباز العريني : تاريخ الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص١٥٠-١٥١. يذكر نقفور أن معاوية بن أبي سفيان قبل أن يدفع سنويًا جزية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية وخمسون أسيرًا وخمسون جوادًا. انظر: Short history, p. 87.

وليس هليوبوليس الشامية (بعلبك)[٢١]. كما أن الأسطول المصري قبل دخول الإسلام إلى مصر كان مسلحًا بهذه النار، ويشير المؤرخ ألفرد بتلر أن المؤرخ سبيوس شاهد في مصر نوعًا من السفن الكبار، مجهزة بالآلات التي تقذف النار، وكانت مزيجًا من مواد سريعة الاشتعال، ويزيد سبيوس على ذلك بأن السفن التي بُنيت في الإسكندرية، بعد الفتح الإسلامي لها، جُهزت بمجانيق لقذف المواد الملتهبة[٢٢].

وتشير الدكتورة سعاد ماهر[٢٣] إلى أن المؤرخ جيبون يؤكد أن هذه النار من اختراع أحد المصريين، ويعتمد في ذلك على ما ورد عند المؤرخ جورج كدرنيوس من أن كالينيكوس كان مصريًا من مدينة هليوبوليس المصرية[٢٤].

ولكننا إذا أمعنا النظر لوجدنا أن هذه النار كانت سرًا احتفظ به الأباطرة البيزنطيين، ولم يعرف سر صناعتها سواهم، وتسلحت به أساطيلهم، سواء سفن العاصمة أو أساطيل الأقاليم، ولا يعني وجود هذا السلاح على بعض سفن أساطيل الأقاليم أنها صُنعت بهذا الإقليم، فهناك فرق بين أماكن وجود هذا السلاح وبين أماكن تصنيعه، خاصة أنه لدينا توصية من اثنين من أباطرة الدولة البيزنطية؛ يوصون فيها بألا يسمح البيزنطيون بأن يتسرب سر صناعة هذا

---

(21) سعاد ماهر : البحرية الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٣١-٢٣٢.

(22) الفرد بتلر : فتح العرب لمصر، ص١٥١.

(23) البحرية في مصر الإسلامية، ص٢٣١.

(24) جورج كدرنيوس Georgii Cedrnius مؤرخ بيزنطي (يوناني) عاش في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري، تناول في كتابه " خلاصة التاريخ Histoirum Compendium تاريخ الخليقة منذ بدء الخلق حتى عام ١٠٥٧م، اعتمد في ذلك على ما كتبه السابقين من المؤرخين فيما عدا الفترة التي عاصرها، فكان شاهد عيان عليها.
انظر : دونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٥٣؛ آمال حامد زيان : الدور السياسي للمؤرخ ميخائيل بسللوس، القاهرة ٢٠١٠م، ص٢٥.

- جيبون : هو إدوارد جيبون Edward Gibbon مؤرخ إنجليزي ولد عام ١٧٣٧م بجنوب إنجلترا في أسرة غنية، وتوفى عام ١٧٩٤م. انظر مقدمة الترجمة العربية للدكتور أحمد نجيب هاشم : جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، القاهرة ١٩٩٧م، ج١، ص١٠-٢٧.

السلاح إلى غيرهم من الشعوب أو البلاد[٢٥]. ولذلك ظل تركيب هذه النار سرًا احتفظ به البيزنطيون دون سواهم فترة طويلة[٢٦].

غير أنه يستشف من تلك التحذيرات، أنه كانت هناك محاولات من قبل الأمم المجاورة للدولة البيزنطية، بأن يتعرفوا على سر صناعة هذه النار، حتى لا يكونوا أقل قوة من قوة البحرية البيزنطية، ومن بين تلك الأمم كان المسلمون الذين فتكت بهم هذه النار مرتين متتاليتين: الأولى أثناء محاصرة معاوية بن أبي سفيان للقسطنطينية وهو حصار السنوات الخمس (٥٤-٥٩هـ/٦٧٤-٦٧٩م، والثانية أثناء محاصرة مسلمة بن عبدالملك بن مروان للقسطنطينية عام ٩٩هـ/٧١٧م[٢٧].

وبالفعل، وبرغم كل ما أحاط به حكام الدولة البيزنطية هذه النار بالسرية، وإصدار الأوامر التي تحرم تصديرها إلى الدول المجاورة، فإن المسلمين استطاعوا الوصول إلى سر صناعتها، وقاموا بتطويرها بصورة جعلتها أكثر فتكا.

فقد وردت إشارة عند المؤرخ المغربي ابن عذاري[٢٨]، إلى أن أسطول الأغالبة الذي توجه إلى صقلية عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م بأوامر من الحاكم الأغلبي زيادة الله بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٦-٨٣٧م)[٢٩] وكان بقيادة إبراهيم بن عبدالله، كانٍ من بين سفنه حراقات، "

---

(25) الإمبراطور الأول هو ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م/٢٧٣-٣٠٠هـ) الذي حذر في كتابه تكتيكا Taktika من الإباحة بسر صناعة النار البحرية، كما فرض عقوبات صارمة على كل من يمد البلاد المعادية بالعتاد الحربي، أما الإمبراطور الثاني فهو قنسطنطين السابع Constantine VII (٩١٢-٩٥٩م/٢٩٩-٣٤٨هـ) الذي حذر هو الآخر في كتابه إدارة الإمبراطورية البيزنطية الذي أهداه لولده وولي عهده رومانوس الثاني، حذر من تسريب سر صناعة النار السائلة إلى أي دولة أخرى، ومن يفعل ذلك يطرد من رحمة الكنيسة.
انظر : قسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٨؛ وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٤٦.

(26) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحضارة البيزنطية، القاهرة ١٩٦١م، ص١٨٢؛ السيد الباز العريني: تاريخ الدولة البيزنطية، ص٣٦٣.

(٣) Theophanes : The chronicle, oxford 1997, p. 546-547; Nikephoros : short history, p. 87 ;
إبراهيم العدوي: الأمويون والبزينطيون، القاهرة ١٩٥٣م، ص١٦٤-١٧٠؛ وسام فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٤٧-١٦١.

(28) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان بورفنسال، د.ت، ج١، ص١٠٥-١٠٦.

(29) زيادة الله بن الأغلب : هو أبو محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، تولى ولاية أفريقية في ذي الحجة عام ٢٠١هـ/ يونيه ٨١٧م، اشتهر بسفك الدماء والغلظة في معاملة الجند، توفى في رجب عام ٢٢٢هـ/ يونيه ٨٣٧م بعد أن حكم المغرب إحدى وعشرين عامًا. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٩٦-١٠٧؛ انظر أيضًا : محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة

فأصاب له النصارى حراقة من مراكبه ". والمعروف أن الحراقة كانت معدة لقذف النار الحارقة، ومعنى ذلك أن الأغالبة استطاعوا اكتشاف سر صناعة هذه النار، وسلحوا بها أساطيلهم في فترة العصور الوسطى الإسلامية خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر للميلاد.

وهنا لابد من ذكر أن أساطيل المسلمين في البحر المتوسط، كان لها ثلاث مراكز رئيسية: المركز الأول في شرق البحر المتوسط، وقواعده في كل من كريت وبلاد الشام ومصر، والمركز الثاني في غرب البحر المتوسط، وقواعده في الأندلس، في حين كان المركز الثالث لهذا الأسطول في وسط البحر المتوسط، وقواعده في شمال أفريقية وصقلية بعد ذلك، وهذا الأسطول الأخير هو الذي كانت تتولاه دولة الأغالبة.

ومن بين هذه الأساطيل الثلاثة؛ وصل أسطول الأغالبة إلى سر صناعة النار البحرية، فكيف تم لهم ذلك ؟

إن الأحداث السياسية، التي عاصرت تلك الفترة، هي التي ساعدت على معرفة الأغالبة سر صناعة النار البحرية، ذلك أن القائد البيزنطي أيفيميوس Euphemios الذي كان قائد الأسطول البيزنطي بصقلية (طرنجار Drongarios)، توجه إلى زيادة الله بن الأغلب عام ٢١١هـ/٨٢٦م مستنجدًا به(٣٠).

فتروي المصادر التاريخية: أنه حدث خلاف شديد بين أيفيميوس والإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠-٨٢٩م/٢٠٥-٢١٤هـ) إثر اختطاف الأول لإحدى الراهبات والزواج منها بالإكراه، مما دفع الإمبراطور إلى إصدار أوامره إلى قائد ثغر صقلية فوتينوس Photenios بالقبض على أيفيميوس وإحضاره إلى القسطنطينية.

غير أن أيفيميوس انتصر على القائد فوتينوس وأعلن نفسه إمبراطورًا في صقلية، لكنه لم يستطع الصمود أمام القائد البيزنطي "بلاطه" كما تسميه المصادر الإسلامية، حيث أنزل بإيفميوس هزيمة كبيرة، مما دفع الأخير إلى طلب النجدة من زيادة الله بن الأغلب، واعدًا إياه " بملك جزيرة صقلية "، أو على الأقل يكون تابعًا له في صقلية ويدفع له جزية سنوية(٣١).

الإسلامية، القاهرة ١٩٨٨م، ص١٢٣-١٢٥. ويقول الذهبي أنه توفى عام ٢٢٣هـ/٨٣٨م، انظر : تاريخ الإسلام، بيروت ٢٠٠٥م، ج٦، ص٥٩.

(1) Theophanes Confessor : the chronicle, oxford 1997, p.

انظر أيضًا : فازيليف، العرب والروم، القاهرة د.ت، ص٦٨؛ السيد الباز العريني : تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٧٠-٢٧٣.

- طرنجار Drongarios : لقب حمله نائب قائد الثغر البحري Strategus وأطلق عليه كذلك نائب أمير البحر. انظر : رنسيمان : الحضارة البيزنطية، القاهرة ١٩٦١م، ص١٧٦-١٧٧.

(31) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٣م، ج٢٤، ص٣٥٤-٣٥٥؛ ابن الأثير:

جاء هذا العرض على هَوى الأغالبة، الذين كانوا تواقين لتحقيق نصر بحري كبير يتيح لهم السيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لهم، فقد سبق أن شنوا عدة إغارات على صقلية لكن دون أن تحقق نجاحًا[٣٢].

ولذلك سارع زيادة الله إلى تلبية رغبة أيفيميوس عسى أن ينجح في بسط يده على صقلية، ووافقه في ذلك بعض فقهاء وعلماء القيروان[٣٣]، فتقرر بقاء أيفيميوس بسفنه في ميناء سوسة حتى يتم إعداد الحملة المنشودة[٣٤]. لكن كيف يتسنى للأغالبة التغلب على الأسطول البيزنطي الرابض بصقلية، وهو المعد إعدادًا جيدًا، ومسلحًا بالنار الإغريقية ؟، كل هذا جعل الأغالبة يفكرون في ضرورة أن تضم سفنهم حراقات تقذف النار الحارقة.

لا يستبعد بعض الباحثين أن الأغالبة استعانوا بمعلومات وخبرة القائد البحري (طرنجار البحر) إيفيميوس في كشف سر صناعة هذه النار[٣٥]، أثناء وجوده في ميناء سوسة منتظرًا إعداد الحملة التي وعده بها زيادة الله[٣٦]، وبطبيعة الحال فإن حقد وكره إيفيميوس للإمبراطور البيزنطي، ولمعظم القادة البيزنطيين في صقلية، هو الذي دفع أيفيميوس إلى إفشاء سر صناعة النار الحارقة، وقبل ذلك الاستعانة بالمسلمين[٣٧].

ودفع حرص الأغالبة لمعرفة كافة التفاصيل عن صناعة النار البحرية، أنهم أخذوا يتصيدون حراقات البيزنطيين حاملة هذه النار، أثناء المعارك البحرية التي نشبت بينهم وبين

الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٥؛ انظر أيضًا: فازيليف : العرب والروم، ص٦٨-٦٩.

(32) النويري نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٥٥؛ انظر أيضًا : حامد زيان : الحضارة الإسلامية بصقلية، ص١٨.

(33) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٥٥-٣٥٦؛ وانظر أيضًا : تقي الدين عباس الدوري : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، العراق ١٩٨٠م، ص٤٨. وعن العوامل التي ساعدت زيادة الله بن الأغلب على غزو صقلية. انظر : حامد زيان : دراسات في تاريخ العالم الإسلامي، القاهرة ٢٠١٠م، ص١٣٦.

(3) Ostroyorsky : History of the Byzantine stste, oxford 1950, p. 183 ; فازيليف : العرب والروم، القاهرة د.ت، ص٧٢.

- سوسه : يقول عنها الحميري أنها من بلاد أفريقية على ساحل البحر، إليها تنسب الثياب الرقيقة السوسية، ومنها ركب أسد بن الفرات غازيًا صقلية. انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار، لبنان ١٩٨٤م، ص٣٣١.

(35) السيد عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية، بيروت ١٩٦٩م، ص١١٥.

(36) البكري : جغرافية الأندلس وأوربا، نشر عبدالرحمن الحجي، بيروت ١٩٦٨م؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٤-٣٣٥.

(1) Bury : A history of eastern Roman Empire, London 1912, p. 298 ; السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص٢٧١.

البحرية البيزنطية، بعد توجه أسد بن الفرات بمراكبه إليها[٣٨]، ووفاته عام ٢١٣هـ/٨٢٨م متأثرًا بالوباء الذي تفشى في صقلية[٣٩]، ثم مواصلة القادة المسلمين عمليات الفتح، فيشير المؤرخ ابن الأثير الجزري، إلى أنه في عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م، بعد تولي أبو الأغلب إبراهيم بن عبدالله أمر قيادة العمليات العسكرية في صقلية، اشتبك مع أسطول بيزنطي في رمضان من هذا العام (مايو ٨٣٥م) وانتصر عليه، واستولى على معظم ما به من سفن، ومن بينها حراقة بيزنطية[٤٠].

ولاشك في أن الأغالبة استفادوا بما وجد على ظهر هذه الحراقة من آلات ومعدات لقذف النار، وذلك حتى يتم لهم الوقوف على كل أسرار هذه الصناعة.

وهكذا كان للأغالبة فضل السبق في كشف سر النار الإغريقية التي احتفظ بها البيزنطيون أمدًا طويلاً، وأخذت الحراقات قاذفة النار تظهر في أسطول الأغالبة منذ ذلك الوقت[٤١]، ومن هنا جاءت الإشارة السابقة لابن عذاري، من أسر البيزنطيين لإحدى حراقات الأغالبة في أواخر عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م[٤٢].

احتفظ الأغالبة بسر صناعة النار الحارقة، مثلما احتفظ به البيزنطيون سابقًا، فإننا لم نجد أحد النصوص تشير إلى استخدام الحراقات قاذفة النار الحارقة في أي من الأساطيل الإسلامية الأخرى بالبحر المتوسط في تلك الفترة. واستمر ذلك حتى حل الفاطميون محل الأغالبة في حكم تونس، والقضاء على دولتهم، واستقرارهم في مدينة " رقادة " عاصمة الأغالبة عام ٢٩٧هـ/٩١٠م[٤٣].

أخذ الفاطميون بعد استقرارهم في إفريقية، في التعرف على النار الحارقة التي استخدمها الأغالبة، وأثبتوا أنهم قادرون على تطوير هذا السلاح، وتفوقوا في ذلك تفوقًا كبيرًا، لدرجة أنهم أحرزوا انتصارات بالغة على البحرية البيزنطية في موقعة المجاز، عند مضيق

---

(38) يشير البكري إلى أن عدد المراكب التي صحبت أسد بن الفرات سبعون مركبًا، انظر : جغرافية الأندلس وأوربا، ص٢٢٠.

(39) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٦.

(40) الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٣٨-٣٣٩.

(41) فازيليف : العرب والروم، ص٧٢-٧٤ ؛

Bury : A history of eastern Roman Empire, p. 297–299.

(42) البيان المغرب، ص١٠٦.

(43) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٨؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا بذكر الفاطميين الخلفا، القاهرة طبعة الذخائر، د.ت، ج١، ص٦٣.

- رَقَادَة : بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان مسيرة أربعة أيام، بناها إبراهيم بن الأغلب، وجعل بها قصورًا عجيبة وبنى بها مسجدًا، واتخذها عاصمة له. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧م، ج٣، ص٥٥.

مسيني عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م، وكان للحراقات الفاطمية دور كبير في هذا الانتصار[٤٤].

ويؤكد ابن خلدون أن البحرية الفاطمية، تفوقت على الأساطيل البيزنطية، واستطاعت أن تفرض نفوذها على البحر المتوسط[٤٥]، فقد تابع حكام هذه الدولة الاهتمام بالأسطول، وما به من معدات، خاصة بعد انتقالهم إلى مصر عام (٣٥٨هـ/٩٦٩م) فعمل المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) على الاهتمام بالأسطول، وعمل على إنشاء السفن بمختلف أنواعها، ومن بينها الحراقات، ورصد للإنفاق على ذلك الأموال الطائلة[٤٦]. فبنى دارًا لصناعة السفن بمصر بالمقس[٤٧]، " ولم يُر مثلها في البحر على ميناء "، وبنى بها ستمائة سفينة حربية[٤٨]، وإذا كان هذا الأسطول قد تعرض للحريق زمن خليفته العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) إلا أن الفاطميين استطاعوا خلال ثلاثة أشهر فقط إعادة بناء هذا الأسطول مرة أخرى[٤٩].

والواقع أنه كان لانتقال الفاطميين من المغرب إلى مصر، واتخاذهم القاهرة عاصمة لهم، أثره في تطوير البحرية الفاطمية، فالمعروف أن مصر قبل الإسلام كانت مركزًا لصناعة السفن، واستمر ذلك بعد الفتح الإسلامي لها، حيث اتخذها معاوية بن أبي سفيان دارًا لصناعة السفن، واعتمد على البحارة المصريين في أسطوله الجديد. واشتهرت في مصر عدة أماكن لصناعة السفن منها: جزيرة الروضة، والقلزم (السويس)، والإسكندرية. كذلك عمل الطولونيون على الاهتمام بالبحرية اهتمامًا كبيرًا[٥٠]، كما اهتم محمد بن طُغج الأخشيد

---

(44) ابن الأثير : الكامل، ج٨، ص٥٥٦-٥٥٨.
- موقعة المجاز : حدثت هذه الموقعة عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م بين الفاطميين والبيزنطيين، عندما شن القائد أحمد بن الحسن الكلبي هجومًا عنيفًا على القوات البيزنطية، وأحرز نصرًا كبيرًا عند مجاز مضيق مسيني، فسميت بموقعة المجاز. انظر : ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٥٥٨؛ انظر أيضًا : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٤م، ص١٠٤.

(45) المقدمة : طبعة المكتبة التجارية، مصر د.ت، ص٢٥٣-٢٥٤.

(46) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق ١٢٧٠م، ج٢، ص١٩٢؛ انظر أيضًا : لويس أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية، ص٣٠٤، ٣٢٥؛ أسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية، رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية ١٩٦٨م، ص٩٠-٩١.

(47) المقس : تعرف أيضًا باسم " أم دنين "، تقع على ساحل النيل. انظر القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، د.ت، ج٣، ص٣٥٧. (وفي مكانها الآن جامع الفتح، بميدان رمسيس بالقاهرة)

(48) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

(49) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٥-١٩٦؛ لويس أرشيبالد : القوى البحرية، ص٣٢٨.

(50) البلوي : سيرة أحمد بن طولون، القاهرة طبعة الذخائر د.ت، ص٥٨.

بالأسطول المصري اهتمامًا كبيرًا، حيث نقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى ساحل الفسطاط، في مكان دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون[٥١].

بالإضافة إلى ذلك فإن نيل مصر شهد وجود حراقات تقذف بالنار، تعمل بالنفط، مثلما شاهدنا ذلك في نهر دجلة بالعراق، وأخذت تلك الحراقات تجوب مياه النيل أثناء الاحتفالات للنزهة والتنقل زمن الفاطميين[٥٢].

غير أن اضطراب أمر الأسطول المصري في أواخر الدولة الفاطمية، وخاصة بعد أن أقدم الوزير شاور على حرق عدد كبير من سفن الأسطول، خوفًا من ملك بيت المقدس عموري الأول (١١٦٢-١١٧٤م/٥٥٨-٥٧٠هـ) لم يقلل من أهمية الأسطول الفاطمي[٥٣].

لم يقل اهتمام الأيوبيون بأمر الأسطول، واستخدام سلاح النار الحارقة، عن اهتمام من سبقهم من حكام، لدرجة أن صلاح الدين الأيوبي، أنشأ ديوانًا خاصًا بالأسطول عُرف باسم " ديوان الأسطول"، وأوقف للإنفاق عليه ما يرد من بعض البلدان[٥٤].

كذلك استخذم الأيوبيون سلاح النار الحارقة مثلما استخدمه الفاطميون من قبل، وكانت الحراريق قاذفة النار جزءًا هامًا في الأسطول الأيوبي، فقد عدد ابن مماتي[٥٥] أنواع السفن التي استخدمت في الأسطول الأيوبي فكان منها الحراقة[٥٦]. ويشير المقريزي أن الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦-٦٤٧هـ/١٢٣٩-١٢٤٩م) عندما وجه عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م حملة بحرية إلى اليمن جهز بها " زردخاناه وشواني وحراريق "[٥٧].

---

(51) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٨٠، ١٩٦.

(52) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٦٢؛ انظر أيضًا : حورية سلام : النظم الحربية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٠.

(53) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٣.

(54) انظر : السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٦٦-١٦٧.

(55) ابن مماتي : هو الأسعد بن المهذب بن أبي مليح بن مماتي، أحد الوزراء المشهورين بالدولة الأيوبية، توفى عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م. انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، نشر إحسان عباس ١٩٧٨م، ج١، ص٢١٠-٢١٣.

(56) قوانين الدواوين، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة، ص٣٤٠.

(57) السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص٣٠٦.

- زردخاناه : مصطلح مكون من كلمتين فارسيتين، زرد بمعنى السلاح، وتطلق أيضًا على الملابس المعدنية التي تلبس أثناء المعارك، وخاناه هو المكان، فيكون المعنى دار السلاح. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣، ص٤٧٣.
- شواني : جمع شيني أو شونة، نوع من السفن الحربية. انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤-١٩٥.

ويقول درويش النخيلي، أن الشيني هو أصل السفن الحربية، وتتفرع منها السفن الأخرى

كذلك استخدم الأيوبيون تلك النار الحارقة في الدفاع عن البلاد ضد العدوان الصليبي، فيذكر المؤرخ چوانفيل الذي كان مصاحبًا لحملة القديس الملك لويس التاسع على دمياط، عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م - أنه في إحدى الليالي قامت القوات الأيوبية بإلقاء النار الإغريقية على أبراج الفرنج التي أقاموها بدمياط، مما أدى إلى أن يشرف معظم جيش لويس على الهلاك. ويستطرد چوانفيل واصفًا تلك النار بقوله: "وكانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل من القار، ذات ذنب يقارب الرمح طولاً، وكان يصحبها صوت هائل كدوي الرعد، وكأنها طائر في الجو، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كافة في وضح النهار"[٥٨].

ويعلق أحد الباحثين بقوله: إن إطلاق النار الإغريقية لا يصاحبه حدوث دوي كدوي الرعد، ولربما أطلق المصريون مدافع محشوة بالبارود مصاحبة لإطلاق قذائف النار الإغريقية لإحداث هلع وخوف في نفوس الفرنجة[٥٩].

ويصدق هذا الرأي إلى حد بعيد، فإن چوانفيل، ومن معه، لم يكن لديهم حتى هذه الفترة علم بسر صناعة النار الحارقة، ولا بكيفية عملها، ولربما سمعوا عنها فقط عندما قدموا إلى الشرق في شكل الحملات الصليبية، كما أشارت إلى ذلك المؤرخة آنا كومنينا[٦٠].

وفي دراسة حديثة، قام بها بعض الباحثين الشبان في التاريخ والكيمياء، أثبتوا أن هذا الدوي ناتج عن استخدام النفط وهو أحد عناصر النار الحارقة؛ عندما يتم تسخينه أثناء قذف تلك النار[٦١].

هذا مع ملاحظة أنه مع معرفة الأيوبيين بسلاح النار الحارقة، إلا أنهم استخدموه في أضيق الحدود، وفي حالات الضرورة القصوى، فلم يصادفنا في مختلف مصادر العصر الأيوبي، إشارات كثيرة توحي باستخدامها بصورة كبيرة أثناء المعارك البحرية الكثيرة التي دار رحاها على شواطئ مصر والشام، أو في تلك الحملات البحرية التي شنها الأيوبيون على مختلف المدن التي استولى عليها الفرنج بسواحل بلاد الشام.

كالطريدة والغراب والحراقة وغيرها. انظر : السفن الإسلامية، ص٨٣.

([58]) القديس لويس : ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص١٠٩-١١٠.

([59]) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣٧٥-٣٧٦.

([60]3) The Alexiad, p. 293.

([61]) وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٤٨ ؛

J. Holdon, M. Byrnie : Possible Solution, pp. 91–99.

بحث ألقى في مؤتمر علمي انعقد في بريطانيا عام ١٩٧٤م، حول استخدام النار الإغريقية، وكيفية إطلاقها، وقد قدم كل من هولدن وبرني رسم نموذجي لكيفية عمل قاذفات النار الإغريقية. انظر : وسام فرج : النار الإغريقية، ص١٥٢، حيث أورد رسمًا لذلك التصور.

ومن ناحية أخرى فقد استخدم الفرنج الحراقات في أساطيلهم أثناء صراعهم مع الأيوبيين، ولكنها كانت تستخدم النفط بدلاً من تركيب النار الإغريقية، لأنه كما سبق القول لم يكن سر صناعة النار قد اكتشفوه بعد، فقد ورد في المصادر المعاصرة أن الفرنج في عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م اعترضوا سفينة كبيرة (بطسة)[٦٢]، شحنها صلاح الدين الأيوبي بالمؤن لنجدة عكا التي فرض عليها الفرنج الحصار، إلا أن الفرنج "خرجوا عليهم واعترضوهم في الحراقات"[٦٣]. كذلك في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط " وصل إلى الفرنج مركب عظيم يسمى مَرمَة وحوله عدة حراقات يحمونه "[٦٤].

وإذا كانت البحرية الأيوبية قد أهمل شأنها في الفترة التي عاصرت سقوط الدولة الأيوبية، والتي انتهت بقيام دولة المماليك، لدرجة أن الأسطول أصبح مهملاً، وصار لفظ " أسطولي " الذي يحمله من يعمل في الأسطول، من الألفاظ التي ينظر إليها بعين الاحتقار، لدرجة أن المقريزي، عمدة مؤرخي مصر في العصور الوسطى، يقول إنه صارت الخدمة في الأسطول عارًا يسب به الرجال[٦٥].

فإنه بعد أن قبض السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) على زمام الأمور، واستقرت له السلطنة في مصر والشام، أخذ في الاهتمام بأمر الأسطول، ففي عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م، " صار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر[٦٦]، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها، واستدعى بشواني الثغور إلى مصر، فبلغت زيادة على أربعين قطعة، سوى الحراريق والطرائد، فإنها كانت عدة كثيرة "[٦٧].

ويستخلص من النص السابق: أن السلطان الظاهر بيبرس اهتم بأمر الأسطول وما به

---

(62) بطسة : وتنطق أيضًا بطشة، نوع من السفن استخدمت في الحرب والتجارة، وهي مأخوذة عن الأسبانية، استعملها الفرنج، كما عرفها المسلمون من خلال الحروب الصليبية. انظر : ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢، ص٧٧ هامش ١؛ درويش النخيلي : السفن الإسلامية، ص١٤-١٧.

(63) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر : جمال الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج٢، ص٣٣١.

(64) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٢٩.

- المَرمَة : نوع من السفن الكبيرة التي استخدمها الفرنج، وهي مصفحة بالحديد حتى لا تؤثر فيها النار، ويبدو أن الفرنج قاموا بتصنيعها لتقيهم شر النار الأغريقية. انظر : ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص٣٢٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣، ص٢٦٠ هامش ١.

(65) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص١٩٤.

(66) يقصد بها دار الصناعة بمصر، وهي دار صناعة السفن التي كانت بساحل مصر القديمة، وكانت موضع دار خديجة بنت الفتح بن خاقان أنشأها محمد بن طغج الأخشيد عام ٣٢٥هـ/٩٣٧م، واستمرت قائمة بمصر حتى عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م. انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٦.

(67) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

من حرارق التي كانت جزءًا هامًا في أسطوله، لمواصلة محاربة الصليبيين، تلك الحرارق التي كانت تعمل بالنار الحارقة التي احتفظ بسر صناعتها المصريون منذ أيام الفاطميين والأيوبيين بالإضافة إلى تسليحها أيضًا بالنفط.

غير أننا، منذ البدايات الأولى لدولة المماليك، لاحظنا عدم توسع المماليك في استخدام النار الحارقة فلم نعد نسمع عن تجهيز حراقات لقذف النار في المعارك البحرية التي خاض غمارها المماليك، وإن كانت تلك الحرارق قد انزوت لتعمل في مياه النيل، في التنقل والاحتفالات.

فعلى سبيل المثال: يذكر المؤرخ أبو الفدا أنه عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس على غزو جزيرة قبرس، عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، أعد أسطولاً تكون من عشر شواني، ولما تحطمت تلك الشواني على يد القبارسة في ميناء ليماسول (اليميسون) بقبرس أعد شواني أخرى[٦٨].

ولم يشر النص السابق إلى استخدام المماليك للحراقات أو النار الحارقة، وإنما اعتمدوا على الشواني. كذلك في عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، أثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م) عندما ازداد خطر القراصنة الفرنج الموجودين بجزيرة أرواد[٦٩]، حيث أخذوا يشنون منها هجماتهم على سفن المماليك المتجهة إلى ساحل الشام، قام الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي، بتعمير عدة شواني، سيرها إلى أرواد، حيث أنزلت عدة هزائم بمن في هذه الجزيرة من الإفرنج وخربوا أسوارها وفرضوا عليها نفوذهم[٧٠].

مع ملاحظة أنه وجدت، في بعض الأحيان، داخل سلاح البحرية المملوكية سفن ترمي بالنفط وليس بالنار الحارقة، وهناك فرق كبير كما سبقت الإشارة بين استخدام النفط واستخدام النار الحارقة – النار الإغريقية – فقد أشار المقريزي إلى أنه في نفس العام أي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م: " جُهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة "[٧١]، ولاحظ هنا أن المقريزي لم يشر إلى وجود حراقات داخل الأسطول المملوكي وهي المجهزة لقذف النار الحارقة، وإنما أشار فقط إلى وجود جماعة النفطية، وهم الرجال الذين يقومون بتزويد هذه

---

(68) المختصر في أخبار البشر، القاهرة د.ت، ج٤، ص٦.

(69) جزيرة أرواد : يقول عنها أبو الفدا : جزيرة في بحر الروم قبالة انطرطوس : المختصر، ج٤، ص٤٧.

(70) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٧٠م، ج١، ق٣، ص٩٢٨-٩٢٩.

- اسندمر الكرجي : هو اسَنْدَمُر بن عبدالله الكرجي، كان من جملة الأمراء بالديار المصرية، تولى نيابة طرابلس بالشام ثم تولى نيابة حماه، وبعدها تولى نيابة حلب، واستمر بها إلى أن عُزل عنها توفى بالسجن عام ٧١١هـ/١٣١١م. انظر : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢، ص٤٤٣-٤٤٥.

(71) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤.

الشواني بالنفط لاستخدامه في القتال[٧٢].

كذلك في أواخر دولة المماليك، عندما عزم السلطان الأشرف برسباي(٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م) على غزو جزيرة قبرس، أمر بتجهيز الطرائد والأغربة[٧٣]، ولم نعد نسمع عن ذكر لوجود حراقات في الأسطول المملوكي.

وهكذا لم يَعد المماليك يستخدمون النار الأغريقية أو النار الحارقة، واستبدلوا تركيب تلك النار بالنفط الذي استخدموه في حراقاتهم العابرة لمياه النيل، ومن ثم أخذ يظهر في مصادر العصر المملوكي مصطلح النفطية، وهم الرجال الذين يعملون على ظهر تلك الحراقات ويقومون بتزويدها بقطع القماش المبللة بالنفط، أو إلى أولئك الرجال الذين يعملون على ظهر الشواني حيث استخدم النفط في القتال البحري، ويعود ذلك إلى أن المماليك أخذوا في الاستفادة من آبار النفط التي وضعوا أيديهم عليها بمنطقة البحر الأسود وآذربيجان[٧٤].

ونتيجة التوسع في استخدام النفط، بدلاً من مركب النار الإغريقية، ظهرت فرقة جديدة عصر المماليك البحرية أطلق عليها الزراقون، وكانت تعمل على ظهور الحراقات يرمون الأعداء بالنار الحارقة بواسطة قدور النفط، وشكلوا فرقة خاصة في الأسطول المملوكي، وكان لتلك الفرقة قائد أطلق عليه " مقدم الزراقون"، ومن أشهر من تولى أمر هذه الفرقة الأمير سيف الدين كهرداس الزراق[٧٥].

([72]) راجع البحث الذي قام به كلّ من طارق منصور ومحاسن الوقاد : النفط استخدامه وتطوره عند المسلمين ٦٤-٩٢٣هـ/٦٨٤-١٥١٧م، القاهرة ٢٠٠٦م.

([73]) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٧١م، ج١٤، ص٢٧٦. وعن تفاصيل غزو برسباي لجزيرة قبرس، انظر : حامد زيان : المماليك، القاهرة ٢٠١١م، ص١٤٣-١٤٤.

- الطرائد : جمع، والمفرد طريده، وهي سفينة صغيرة سريعة الحركة، أكثر ما كان يحمل عليها الخيل. انظر درويش النخيلي : السفن الحربية، ص٨٩؛ سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية، ص٣٥٣-٣٥٤.
- الأغربة : جمع، والمفرد غراب، وهو من المراكب البحرية شديدة البأس، استعملها المسلمون والفرنج على السواء، ومنه الصغير والكبير حسب عدد مجاديفه، ويقول ابن مماتي أنه يطلق عليها أيضًا اسم " شيني ". انظر قوانين الدواوين، ص٣٤٠؛ انظر أيضًا: درويش النخيلي : السفن الإسلامية، ص١٠٤-١٠٥.

([74]) فاطمة حسن وقاد: دور الأسطول المصري في الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، آداب القاهرة ١٩٩٨م، ص٢١٦-٢١٧. وعن تطور استخدام النفط عند المسلمين، انظر: طارق منصور ومحاسن الوقاد: النفط: استخدامه وتطوره عند المسلمين ٦٤-٩٢٣هـ/٦٨٤-١٥١٧م، ص١٢-١٧.

([75]) هو سيف الدين كهرداس المنصوري، لصُق باسمه لقب الزراق فصار يقال له كرداس الزراق، يقول عنه ابن حجر: " كان ذكيًا فطنًا له عناية بالكتب العلمية "، تولى أمر قيادة الأسطول الذي

أما تلك النار الحارقة، فقد اختفى استخدامها شيئًا فشيئًا، خاصة بعد اتساع استخدام البارود في القرن التاسع الهجري / الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي[٧٦].

توجه لغزو جزيرة أرواد عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، توفى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م. وجزيرة أرواد تقع بالقرب من ساحل بلاد الشام قبالة انطرطوس (طرطوس حاليًا). انظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، أبو ظبي ٢٠٠٧م، ج٢، ص٦٨١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، القاهرة د.ت، ج٣، ص٣٥٥-٣٥٦.

(76) ستفين رنسيمان : الحضارة البيزنطية، ص١٨٣.